البطل الجزائري فتحي نورين عند عودته إلى بلاده بعد رفضه مواجهة اسرائيلي في الاولمبياد.
arabic.rt.com (2021).
محمد أكرم العدلوني، العمل المؤسسي، مرجع سابق، ص(200).
طارق سويدان 2
محمد ناجي بن عطية، البناء المؤسسي 2016

التحديات التي تواجه رأس المال الاجتماعي للأسرة الفلسطينية "دراسة سيكولوجية للأسرة الفلسطينية في زمن ما بعد الحداثة

أحمد خالد الزعتري، سناء زهير عبد الوالي الرفوع

الملخص

. بمراجعة التغير الحاصل في تركيبة الأسرة الفلسطينية، نجدها قد تراجعت عن كونها أسرة ممتدة إلى أن أصبحت أسر صغيرة ونووية، أصبح شغلها الشاغل توفير أمنها الاقتصادي والاجتماعي، بعيداً عن المصلحة العامة للعائلة أو العشيرة، ما أدى إلى تراجع دور الأسرة في صنع القرار، وانتقال هذا الدور إلى المؤسسات الاجتماعية والتنظيمات الحزبية، والتي لعبت الدور الأكبر في إعادة صياغة وتشكيل المجتمع وتوجهاته، فأصبح الفرد القاعدة الأساس لبناء المجتمع. وبناء عليه، يسعى الباحث إلى تقديم ورقة بحثية تتناول فيه صراع الأدوار بين

الأسرة الفلسطينية والمؤسسات الاجتماعية (المحلية والأجنبية) في تشكيل رأس المال البشري، ولعب الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الناظم لها، في محاولة من الباحث إلى تقديم مقترحات وتوصيات تهدف إلى محاربة محاولات التحكم والسيطرة على الهوية والوجود الفلسطيني والعبث بهم، في مسعى إلى إعادة دور الأسرة والعشيرة الفلسطينية في التأثير على عملية صنع القرار وتحديد المصير، بعيداً عن محاولات تأسيس العمل الاجتماعي، والذي أدى إلى تراجع مكانة الأسرة ودورها في النهوض بالمجتمع، والتوجه نحو المصلحة الشخصية في زمن ما بعد الحداثة، والذي وإن تجاهلناه، سيعمل على تغيير كافة المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية لدى المواطن الفلسطيني.

الكلمات المفتاحية: الأسرة، رأس المال الاجتماعي، رأس المال الاقتصادي، العولمة، الغزو الثقافي، كي الوعي، عصر ما بعد الحداثة.

المقدمة

تتشكل الروابط الاجتماعية في المجتمعات عن طريق عدة عوامل، تتركز أساساً على روابط "القرابة، الجوار، المواطنة، الصداقة...". ومن الممكن أن تطغى إحدى هذه العوامل على الأخريات بناء على الظروف التي تعيشها البلد، ففي العادة يدافع الأفراد عن علاقات القرابة، إلا أنها، وفي مجتمعات المدن، تبدأ بالاضمحلال والتراجع، في ظل الانشغال بأمور الحياة الخاصة، مع التحول نحو الأسر النووية، ويؤكد ابن خلدون، والعديد من علماء الاجتماع الحضري، أمثال لويس ويرث بأن علاقات الأقرباء تضعف وتتلاشى في ظل التطورات الحاصلة والتغيرات في بناء الأسر، كما أن الروابط الاجتماعية يمكن تجسيدها في ثلاث أشكال، وهي رباط اجتماعي رباط تجاري أو اقتصادي، ورباط سياسي(43).

وتفترض الدراسة أن الوسط الحضري يعد العامل الرئيس المؤدي إلى التغيّر في طبيعة روابط الأقرباء، والتي تراجعت بشكل ملحوظ في ظل ازديادا لظاهرة الفردية والمصلحة الشخصية بعيداً عن التفكير الإنساني المجتمعي، وهو ذات الطابع الذي يغلب على عقيلة وعلاقات الأفراد في الحياة الحضرية. كما تفترض الدراسة أن التغير الحاصل في نمط الأسرة (الانتقال من الأسر الممتدة إلى الأسر النووية) قد أضعف رأس المال الاجتماعي المبني على دعم وتأييد العشيرة/القبيلة والتوجه نحو الحصول على دعم الحزب والعمل المؤسساتي بعيداً عن المشاريع العائلية.

مقاربات نظرية

(43) عبد الكريم بويحياوي، تفكك الرابطة الاجتماعية عبر وسائل الاتصال من الأنوميا إلى ظاهرة الخواء الاجتماعي، فعاليات الملتقى الوطني الرابع لقسم علم الاجتماع يوم6و7نوفمبر2006، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ، ص304.

عند إجراء مقاربة في نظريات علم الاجتماع، نجد أنه وعلى الرغم من التحولات الواضحة على أنماط الإنتاج في المجتمع الفلسطيني، والتي أدت إلى تحولات في الأشكال البنائية للأسرة، والانتقال من حياة البداوة والفلاحة إلى حياة المدن، إلا أن الاستناد إلى مبدأ "الحتمية الاقتصادية" من المنظور الماركسي لا يصلح للتطبيق، فالتحولات الاقتصادية التي شهدها المجتمع الفلسطيني لم تنجح في تحويل منظومة القيمة والعلاقة لدى أفراد الشعب الفلسطيني، فيما يعرف بالبناء الفوقي، ومكانة الأب (شيخ العشيرة)، وبالتالي نجد أنه وعلى الرغم من غياب القبيلة والعشيرة الفلسطينية كبناء ونسق اجتماعي" سائد في العقود الأخيرة، إلا أن ذلك لم يؤد إلى غياب الانتماء القبلي لدى الأفراد والجماعات، فما زال التفكير البدوي سائداً في ذهنية المواطن العربي عامة، وفي بلاد الشام على وجه التحديد[44]. وهو ما أكده هشام شرابي بقوله "... يبين استمرار الولاء العشائري في المجتمع البطيركي الحديث مدى بقائه مقيداً بالأشكال البطريركية القديمة، فلم يؤد تطور المدن ولا تطور المجتمع والدولة إلى قيام بناء اجتماعي يحل محل البناء البطريركية القديمة، هكذا استمر الانتماء العائلي على أساس الإخلاص والولاء، وأصبح أكثر فاعلية من أية أيديولوجية ناظمة"[45].

أما المدرسة الأنثروبيولوجية، فعلى الرغم من أنها لم تحدد تعريفاً للقبيلة، إلا أنها أشارت في تعريف القبيلة بأنها عبارة عن "كيان ذو هوية ثقافية يتداول لغة محدودة ونظام من الرموز والمعاني، وغالباً ما تكون في حالة التصادم مع الدولة التي تمثل الشرعية السياسة، وهي كيان سياسي يكتسب خصوصيته المتمثلة في امتلاكه نوعاً من النظام السياسي ولو في شكله البدائي والعفوي"(46).

ومن جهة أخرى، يمكن تناول العلاقة بين النظام العشائري والدولة في ذهنية المواطن الفلسطيني من خلال فكرة رأس المال الاجتماعي، والذي بينها بيير بوردي باعتبار أن "جميع أشكال القوة سواء أكانت مادية أم ثقافية أم اجتماعية أم رمزية، إنما يتم استحضارها من قبل الأفراد، إذ يركزون على المصادر الثقافية والاجتماعية والرمزية المختلفة بهدف المحافظة على مواقعهم ووضعهم في النظام الاجتماعي، والتي تمثل بالنسبة لهم رأس مال اجتماعي يمكن الاستناد إليه وبقوة عندما تقترن بعلاقة قوة اجتماعية بحيث تصبح موضوعات ذات قيمة يناضل الأفراد من أجلها"[47].

وذلك هذا الصدد، تناول الحوراني (2012) في دراسته العشيرة كرأس مال اجتماعي، والتي خلص فيها إلى أن "العشيرة تمثل رأس مال اجتماعي، وأن الولاء العشائري ما يزال قوياً، إذ يحقق الدعم الوجداني المتمثل

([44]) محمد الحوراني. "العشيرة رأس مال اجتماعي: دراسة سوسيولوجي لمكونات الولاء العشائري وتحولاته في المجتمع الأردني"، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، 2012، مج5، ع(2): 172-201.

([45]) هشام شرابي. البنية المطركية: بحث في المجتمع العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1987، ص40

([46]) عطا الله النوعي. "سوسيولوجي البنية القبلية – دراسة نظرية"، مجلة العلوم الاجتماعية – جامعة الأغوات، 2018، مج7، ع(31): ص ص 72-80.

([47]) بيير بوردي. العقلانية العملية حول الأسباب العملية ونظرياتها، ترجمة عادل العوا، ط1، دار كنعان، دمشق، سوريا، 2000.

بالاطمئنان والأمن الوجودي والاعتداد بالذات والثقة، كما يحقق أبناء العشيرة الوصول إلى المصادر النادرة مثل الحصول على المال والعمل والمنصب والحراك الرأسي والقوة الاجتماعية، والقدرة للوصول إلى أصحاب القرار، وتحقق العشيرة المرجعية التجانسية والتي تتجسد توازن العلاقة والاتساق الفكري والاتفاقات المشتركة، والقدرة على حشد التضامن في المواقف الطارئة"[48].

الأسرة النووية والممتدة في عصر ما بعد الحداثة

تعتبر دراسة العلاقة المتبادلة بين الأسرة (الحضرية والحديثة) والقرابة من بين أبرز المواضيع التي أثارت اهتمام علماء الانثروبولوجيا، وعلما الاجتماع الحضري، وحتى علماء الاجتماع الأسري، إذ يؤكد عالم الاجتماع الأمريكي وليام جود W.Good (1917-2003) في كتابه "الثورة العالمية وأنماط الأسرة" على تراجع هذه العلاقة على المستوى الدولي، إذ غدت دول العالم أكثر صناعةً وتحضراً، والذي ساهم في تحول النسق الأسري نحو نسق الأسرة الزوجية (الأسرة النووية)، نظراً لملائمة واقع الحال الذي تعيشه هذه الأسر، وخصوصاً التوجه نحو عمل كلا الزوجين، وفي هذا الصدد أشار بقوله "بينما يتغلغل النسق الاقتصادي ويمتد من خلال التصنيع تتغير أنماط الأسرة وتضعُف روابط القرابة الممتدة، وتتحلل أنماط البيئة، لتتجه نحو بعض أشكال النسق الزوجي الذي يبدأ في الظهور، وهذه هي الأسرة النواة، التي تُصبح وحدة قرابة مستقلة"[49].

وبذلك نجد أن التغيرات العالمية الحاصلة، والتي ظهرت بشكل جلي في انتقال المجتمعات من كونها ريفية أو بدوية إلى مجتمعات صناعية، مروراً بمظاهر العولمة الثقافية، وصولاً إلى عصر ما بعد الحداثة، قد فرضت نفسها وأثرت بشكل كبير في ظهور الأسرة النووية، أي أن تغير ثقافة معيشة الأسرة من حياة الفلاحة والبدوية إلى الحياة الحضرية، كانت من أبرز العوامل التي أوجدت هذا النوع من الأسر، والذي ساهم بشكل واضح في تراجع روابط الأقرباء وإعلان زوال الأسرة الممتدة لدى الكثير من الأسر، خصوصاً تلك الأسر التي اعتمدت على النسق الاقتصادي الفلاح/البدوي، والذي فرض عليها هذا الواقع مسبقاً، في سبيل خدمة الأرض التي تتطلب الجماعة، وتعظيم شأن الأمير في العائلات البدوية، وساهم بشكل جلي في هجرة الأسرة النووية إلى المدن، أو الحياة باستقلالية عن الأسرة الممتدة الموجودة في الريف.

نشأة المجتمع الأبوي المستحدث في عصر الحداثة وما بعد الحداثة

شهد المجتمع الفلسطيني تغيراً جذرياً في نمط الحياة الأسرية لدى معظم العائلات الفلسطينية، في ظل تنامي التوجه نحو العمل المؤسساتي، والابتعاد عن العمل التطوعي، وإقامة المشاريع العائلية، والبحث عن فرص

([48]) محمد الحوراني، مرجع سابق، ص 172.

(49) سناء الخولي، الأسرة و الحياة العائلية، دار النهضة العربية،بيروت، 2009، ص66.

عمل لدى القطاعين العام والخاص، ما أحدث طبقة نيوليبرالية هجينة (برجوازية مستحدثة) تعيش في جو من التناقض بين مفهوم الأسرة المدينة والأسرة البدوية أو الفلاح، مع حدوث تناقض واضح بين تلك الطبقات البرجوازية وطبقة العمال في المدن، إذ غلب عليها التناقض في قدرتها على التعايش مع ظروف حياة المدينة، والاستمرار في الالتزامات المجتمعية للقبيلة أو العشيرة، في ظل ارتفاع مستلزمات الحياة المادية، ما أحدث فجوة بين الأجيال، وساهم في خلق تناقض واضح، بين أحقية الفرد في الاستقلالية أو استثمار مخزونه وإرثه الاجتماعي في بناء الأسرة[50].

ولم يصل الحال بهذه الأسر إلى حسم أو تأليف شكل متصالح ما بين تطلعاتها وأمانيها في تحقيق الذات واستقلاليتها عن الأسرة الممتدة، وبين القيم والاتجاهات الثقافية والفكرية التي تتطلب العمل المشترك مع الأسرة الممتدة، سواء في توزيع الإرث، أم في استمرار المشاريع العائلية (الزراعة، تربية المواشي، الحرف اليدوية التقليدية..)، ما خلق بناء مجتمع متفسخ، تنتشر فيها ممارسات متناقضة بين ما هو مُعلن وما هو خفي لدى ثقافات واتجاهات هذه الأسر، وتعيش في نزاعات داخلية، وتمزقها "الحنين، الندم، الحزن" للعودة إلى الماضي، للعيش بوئام وسلام مع النفس[51].

المطالبة بالديموقراطية والاستقلالية في عصر ما بعد الحداثة

تؤكد الدراسات السوسيولوجية إلى أن المجتمعات القبلية والفلاحة تستند إلى مبادئ ومرتكزات تقوم على تعظيم دور (الأب) في ظل مجتمع بطريركي، تسوده عادات وتقاليد راسخة، وعلى الرغم من ثبات واستمرارية هذا النمط من التعايش بين القبائل والعشائر، إلا أنه قد أقصى وبشكل واضح مبادئ الديمقراطية، فاستعاض عنها بالتسلطية [52].

وبذلك نجد تنامي التوجه الأسري نحو تحقيق الذات، بعيداً عن تفرد كبير العائلة في القرارات، والتبعية الاقتصادية في ظل إقامة مشاريع عائلية مشتركة، مع انعدام خصوصية الأسرة، والتدخل في كافة الشؤون والمشاكل الأسرية، والذي ساهم في سعي الأسر الفلسطينية نحو الاستقلالية والتوجه نحو تشكيل نمط الأسرة النووية المستحدثة، والتي تطلبت بشكل كبير مشاركة الزوجة في العمل، وخصوصاً لدى الأسر التي تعتمد على الراتب الشهري، بخلاف الأسر التي تمتلك مصالح وأعمال خاصة تسمح باستقلالية الزوج وتفرده بالعمل، وعدم الحاجة لعمل الزوجة.

([50]) هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993، ص28-31.

([51]) علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، دار الطليعة، بيروت، 1977.

([52]) أسامة عبد الرحمن، النفط والقبيلة والعولمة، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.

الخاتمة

نلاحظ من خلال ما تم تقديمه إلى أن المجتمع الفلسطيني، كغيره من المجتمعات، قد شهد بروز عدة ظواهر اجتماعية، والتي لم تحدث بالصدفة، ففي عصر ما بعد الحداثة، وتراجع دور القبيلة والعشيرة، وازدياد التوجه نحو إقامة أسر نووية، مع تنامي حالة الفردية، والمصلحة الفردية بعيداً عن التفكير الإنساني المجتمعي، ومهما كانت الأسباب، وعلى الرغم من صغرها، والتي تبدو في بادئ الأمر بغير ذات أهمية، إلا أن دراسة هذه التغيرات يؤكد إمكانية حدوث تأثير كبير بروز هذه الظواهر الاجتماعية، والتي تتأثر بما يعرف بحالة الفوضى التي يعيشها الشعب الفلسطيني، والتخبط السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وحتى الأمني، ما يستدعي إعادة النظر في أصل ونواة المجتمع، ألا وهي الأسرة، ومدى قدرتها في التعايش مع مستحدثات العولمة والحضارة، والتي أدت إلى ابتعاد الأسرة عن النمط ألبطريركي، وتنامي مكانة المرأة، وخصوصاً العاملة، وازدياد مستوى الوعي للحقوق والواجبات لكل فرد من أفراد الأسرة، بعيداً عن التناحر الحزبي، والخلافات القائمة في وجهات النظر، والتي يمكن تجاوزها من خلال التركيز على أصل القضية، ألا وهي الاحتلال الإسرائيلي، والعمل على بناء أسرة فلسطينية متمسكة بجذورها القومية والدينية، ومعتزة بعاداتها وتقاليدها المحافظة.

فعلى الرغم من تحديات الاحتلال الإسرائيلي وإجراءاته التعسفية بحق الشعب الفلسطيني، في ظل حملات الغزو والتشويه الثقافي، وتداعيات العولمة بشقيها الثقافي والتكنولوجي، ومحاولات كي الوعي في الوجدان والهوية، والذي استهدف الأسرة الفلسطينية، ومقوّماتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، الساعي لتعديل السلوك الاجتماعي لدى المواطن الفلسطيني بشكل عام، وتفتيت الأسرة الفلسطينية على وجه التحديد، إلا أن تقرير المصير بات أمراً وجودياً في صميم الوعي الشعبي والرسمي، والذي استحدث العديد من الإجراءات الوقائية لحماية نفسه من الاختراق، ما استدعى حماية الأسرة كنواة للمجتمع، وتمكينها اجتماعياً واقتصادياً من قبل صناع القرار وراسمي السياسات.

وفي ظل التداعيات الناشئة في عصر الحداثة وما بعدها، نجد تغيرات جذرية قد حصلت في بنية الأسرة الفلسطينية، والتي أفقدتها الكثير من مرتكزات القوة، سواء في استنادها إلى العمق القبلي أو العشائري، والذي وفّر لها الحماية، وسمح لها في البقاء والديمومة لمئات السنين، ومع ذلك، فإنها لم تساعد في تطور المجتمع وتمدنه، بل بقيت محافظة على نمطها ألبطريركي التسلطي، والذي قام على إقصاء الأطراف والنساء، واعتمد على مبدأ تعظيم (الأب) واعتباره المرجع والقدوة، كما أحدث تبعية اجتماعية واقتصادية لدى الأسرة، والذي تناقض مع تطلعات الأسر الفلسطينية في استقلالية الرأي، واستقلالية المورد المالي، واستقلالية العمل، وحرية الرأي والتعبير، وخصوصاً لدى الأسر التي عاشت فترة الازدهار والانتعاش الاقتصادي والمؤسساتي في تسعينيات القرن الماضي.

النتائج

على الرغم من أهمية التوجه نحو التحضر والتمدن في ظل عصر ما بعد الحداثة، إلا أن هذا التوجه قد أحدث اختلال في بُنية الأسرة الفلسطينية، والذي أبعدها عن عمقها العشائري والقبلي، وأضعف أواصر الروابط الأسرية، والتي اقتصرت معالمها في المشاركة بالمناسبات الرئيسة، مثل الأفراح والأتراح، مع تراجع ملحوظ في الأعمال الأسرية التي سادت مسبقاً في المجتمع الفلاح والبدوي، إذ كانت الأسرة تحتاج إلى أكبر عدد من الأيدي العاملة لمواسم الزراعة والحصاد وتربية المواشي والأغنام، وهي من المشاريع التي شهدت تراجعاً كبيراً لدى الأسر الفلسطينية.

وبناء على ذلك، ما زال الولاء العشائري قوياً – بشكل مبطن كان أو علني – ويحقق الأفراد من خلاله الدعم الوجداني، ويعزز الثقة بالهوية وبالنفس المتمثل بالاطمئنان، كما يحقق الأفراد إمكانية الوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة تتمثل في "الحصول على المال، والعمل، والمنصب، والقوة الاجتماعية والوصول إلى أصحاب القرار...، كما يحقق الأفراد بموجب ولائهم للعشيرة (المرجعية التجانسية) والتي تتجسد بتوازن العلاقات، والاتساق الفكري، والاتفاقات المشتركة".

وفي ظل الهجرات المتزايدة نحو المدن الكبرى، وحتى تلك الأسر التي ما زالت تعيش في القرى والأرياف، فقد بات من الواضح سعيها نحو الاستقلالية، بعيداً عن العمل المجتمعي، وإن استمرت في تلبية مطالب المجتمع ومؤسساته المدنية، ما ساهم في البحث عن وظائف رسمية في القطاعين العام والخاص بهدف الحصول على دخول شهرية ثابتة لتغطية مستلزمات الحياة الحضرية المتزايدة، سواء في تعليم الأبناء في المدارس والجامعات الخاصة، أم في العلاج لدى المستشفيات الخاصة، أم في توفير الأجهزة والأدوات والأثاث أسوةً بالمجتمعات المدينة.

المراجع

بوردي، بيير (2000). العقلانية العملية حول الأسباب العملية ونظرياتها، ترجمة عادل العوا، ط1، دار كنعان، دمشق، سوريا.

بويحياوي، عبد الكريم (2006). تفكك الرابطة الاجتماعية عبر وسائل الاتصال من الأنوميا إلى ظاهرة الخواء الاجتماعي، فعاليات الملتقى الوطني الرابع لقسم علم الاجتماع يوم6و7نوفمبر2006، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.

الحوراني، محمد. (2012). "العشيرة رأس مال اجتماعي: دراسة سوسيولوجي لمكونات الولاء العشائري وتحولاته في المجتمع الأردني"، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، مج5، ع(2): 172-201.

الخولي، سناء (2009). الأسرة و الحياة العائلية، دار النهضة العربية، بيروت.

زيعور، علي (1977). التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، دار الطليعة، بيروت.
شرابي، هشام (1987). البنية البط ركية: بحث في المجتمع العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص40
شرابي، هشام (1993). النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
عبد الرحمن، أسامة (2000). النفط والقبيلة والعولمة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
عطا الله، النوعي (2018). "سوسيولوجي البنية القبلية – دراسة نظرية"، مجلة العلوم الاجتماعية – جامعة الأغوات، مج7، ع(31): ص 72-80